فرنسا الكولنيالية وسؤال الهوية في منطقة القبائل

حمدي عيسى

قسم العلوم الاجتماعية-جامعة مستغانم

إن مطارحة موضوع علاقة فرنسا بسؤال الهوية في منطقة القبائل يسوقنا حتما إلى إثارة قضايا خلافية غالبا ما يطبعها التعصب الإيديولوجي والقفز على الحقائق السوسيلوجية، فنجد أن الاصطفاف حول هذه القضية قد أفضى إلى تَشَكُّل معسكرين، الأول وهو المعسكر "**القومي العروبي**" والذي يعتقد بوجود سياسة فرنسية بربرية (قبائلية) إبان الاستعمار، فضَّلت ساكنة منطقة القبائل عن باقي "**الأهالي**" آنذاك وعاملتهم بنوع من التمييز ووظفتهم لإحكام السيطرة على البلاد. بينما يعتقد المعسكر الثاني وهم "**نشطاءالحركة البربرية**" أنه لم تكن هنالك أية سياسة فرنسية بربرية إبان الاستعمار، بل بالعكس من ذلك، أن فرنسا قد عمدت إلى تشتيت "**الأمازيغ**" "**القبائل**" وإضعاف هويتهم بتكسير بُنَاهُم الاجتماعية واقتلاعهم من أرضهم وإرغامهم على الهجرة والاغتراب وما ينجرُّ عنه من سلخ لهويتهم.من هنا سنحاول مناولة هذا الموضوع بمحاولة مساءلة التاريخ واستقراء الوقائع السوسيلوجية وإعادة بناء المشهد الاجتماعي محاولة منا لفهم حيثياته، وستتمحور إشكالية دراستنا حول الأسئلة التالية:

ما هو الدور الذي لعبته فرنسا في إبراز أو تأجيج المسألة الهوياتية في منطقة القبائل إن وُجدت أصلا ؟ هل حقا كانت لفرنسا "**سياسة قبائلية**" مميزة أم أنها كانت تندرج ضمن أبعاد الايديلوجيا الكولونيالية العامة التي سطَّرتها لإحكام سيطرتها على الجزائر وابتلاعها عسكريا وثقافيا واقتصاديا؟ وهل حقا أن فرنسا الاستعمارية قد خدمت القضية القبائلية أم أنها بالعكس قد أضرَّت بها ؟

منطقة القبائل قبل الغزو الفرنسي:

يجمع علماء الاجتماع و الإناسة أن أهم ما جاءت به الحداثة الغربية هو مفهوم الدولة التي تقوم على مبدأ التوحيد والتأحيد،وذلك بتوحيد الجهود والمساعي لبناء الدولة بتأحيد النظم الفكرية، القانونية، الثقافية، الاجتماعية والسياسية وحتى الدينية.

هذه الدولة التي غيَّرت بنية المجتمعات التقليدية الغربية من مجتمعات زراعية وإقطاعية لمجتمعات صناعية ليبرالية قامت على **مركزيةالإنسانالغربي**، الذي أعطى لنفسه الحق في التصرف في مصير المجتمعات غير الغربية و"**الوحشية**" في نظره بدعوى "**مهمة التمدين**" « **Mission Civilisatrice** »،فكانت الجزائر من أولى هذه الدول التي تعرَّضَتْ لصدمة الاستعمار الاستيطاني .

وأمام هذا الوضع الجديد، وجد المستعمِر (أو المستدمِر بتعبير مولود قاسم) الغربي المتفوق ثقافيا وحضاريا، نفسه أمام مجتمعات مجهولة المعالم، مما يستدعي دراسة مُعَمَّقة وشاملة لبناه الفكرية، الاجتماعية، السياسية والدينية، بغرض إحكام السيطرة عليه. ومنه نجد أن الاستعمار الفرنسي قد شكَّل لجانا للاستكشاف العلمي للجزائر ولساكنتها. ولكن قبل ذلك وجدنا أن أولى الدراسات أو بالأحرى التقارير التي أُقيمت حول الجزائر وبالخصوص حول منطقة القبائل هي التي قام بها الرحَّالة الفرنسيون خلال القرن الثامن عشر وذلك لاستكشاف البلاد والعباد.

ففي تقرير للرحَّالة "**Peysonnel**" قدَّمه في **19 جوان725** يقول:" **مررنا عبر ثلاث قرى عصرية يسكنها "عرب" يُسَمَّون (قبايل)، ليس لها لا زعيم ... ولا قائد عسكري، كل واحد منهم سيِّد وحُرٌّ في اختياراته، وهم في غالب الأحيان "لصوص" أو بالأحرى حيوانات ضارية (bêtes féroces) تسكن تلك الجبال ... والزواوة ليسوا إلا (قبايل)، أو هذا الصنف(espèce) المتوحش وهم رجال لا يُروَّضون"(A.BERBRUGGER, 1839: 65)**، ويضيف بعيدا في تقريره: **"كل "عرب" هذه البلاد(وهو يقصد القبايل) يسكنون في أكواخ" (A.BERBRUGGER,1839: 75)**.

أما الرحَّالة (**Desfontaines**) فيصف أحوال جبال جرجرة وحالة اللاأمن التي تسود فيها في تقرير بعثه في **18 سبتمبر1785** بقوله:" **لكي لا نعرض أحدا من قافلتنا للسرقة من طرف قبايل جرجرة الذين لا يُرَوَّضون ... وللعرب (وهو يقصد القبايل) هنا عدد كبير من القرى....وهم يقاتلون بشجاعة ولا يدفعون شيئا للأتراك ويسلبون القوافل".**

(A.BERBRUGGER,1839:76).

من خلال هذين التقريرين المعروضين على سبيل المثال لا الحصر، نستخلص أن نظرة الفرنسيين للمجتمع الجزائري قبل احتلال الجزائر كانت شمولية وتجهل المكونات السوسيوثقافية للشعب الجزائري، إذ كانت تنطلق من عقدة الموروث التاريخي الغربي الذي يضع العرب المسلمين برسالتهم الحضارية الغالبة آنذاك، في وجه الغرب الصليبي المغلوب، فكان الغرب ينظر إلى العالم الإسلامي كوحدة **حضارية**مُوَحَّدة دينيا ولغويا وسياسيا ولا يُفَرِّق بين مختلف العناصر الإثنية التي اندمجت لتشكل فسيفساء الأمة الإسلامية.

كما أن نظرتهم "**للقبائل**" بالخصوص يشوبها الضيم، وأقل ما يمكن قوله هو كونها أحكام قيمية تعميمية تفتقر إلى أدوات المنهج العلمي، إذ كيف يمكن تعميم صفة –"**التوحُّش**" وخاصة "**اللُّصوصية**" التي يقول عنها "**آجرون**":" **كانت لِلُصوصيةِ "القبائل" شهرة كبيرة** ", **(Ageron (ch))(885: 2010** – على كافة "**القبائل**" دون القيام بدراسات مسحية تشمل كافة سكان هذه البطون، وذلك عِلمًا أن الكثافة السُكَّانية كانت عالية في هذه المناطق ما يعطي عددا كبيرا من القرى والمداشر، وثانيا تَوزُّعها على مساحات جبلية وعرة وشاسعة تتطلب إمكانات مادية وإطارا زمنيا كبيرا.

منطقة القبائل في الفترة الأولى من الغزو(الحكم الإمبراطوري – العسكري):

لقد أفرز الغزو الفرنسي للجزائر حالة من التشنج والاضطراب لدى ساكنة الجزائر، التي انتفضت غيرَ ما مرة في وجه "**الرومي** " الذي شرع في ابتلاع البلاد شيئا فشيئا.ولقد كانت إستراتيجية الاحتلال الفرنسي تندرج ضمن مشروع "**نابليون الثالث**" الذي يقضي بإنشاء المملكة العربية في الجزائر، ويظهر هذا جليا في العديد من كتاباته وخطاباته لجنرالاته، نذكر على سبيل المثال لا الحصر، خطابه الذي أرسله لأحد جنرالاته وهو "**ماكماهون**" يقول فيه: "**إن الجزائر مملكة عربية، مستعمرة أوروبية ومعسكر فرنسي** "وفي رسالة أخرى موجهة لنفس الجنرال بعنوان "سياسة فرنسا بالجزائر" زَكَّى فيها "**نابليون**" نظام المملكة العربية وهذا ما يؤَكِّده "**Tournier**" بقوله: "**إن الفكرة الاستعمارية الوحيدة المطبقة ميدانيا، تمثَّلت في تأسيس المملكةالعربية في الإمبراطورية الفرنسية**

(le royaume arabe dans l'empire Français)، لقد تركنا في نفس الأرض التي نحيا فيها فريقا من المستوطنين أغلبهم فرنسيون دون اندماج من جهة ، ومن جهة أخرى فريقا من العرب بأخلاقهم وعاداتهم وإسلامهم وأفكارهم المسبقة عنا".(Tournier (ch) , 1925 :428).

وفي هذه المرحلة التي امتدَّت من الغزو إلى غاية سقوط الإمبراطورية، تولى العسكر تسيير شؤون الجزائر، وأمام رغبتهم في إحكام السيطرة على كافة التراب الجزائري وترويض شعبه، تَحَتَّم عليهم دراسة البُنى الفكرية، الاجتماعية والسياسية لهذا المجتمع "**الأهلي**" مما استدعى استنفار الباحثين الأكاديميين منهم والعسكريين لكشف اللثام عن هذا المجتمع "**المتوحش**" والوقوف على نقاط ضعفه لاستغلالها وتضخيمها، وعلى نقاط قوته لإطفائها أو للحدِّ من فاعليتها .

فتوالت الدراسات حول الشعب الجزائري عامة ومنطقة القبائل خاصة، إذ نجد العديد من الباحثين قد اِستَهوَتهم هذه المنطقة لما تحمله من خصوصيات ثقافية واجتماعية، ومن أهم الدراسات التي أُجريت على **منطقة القبائل** نجد كلا من:

1. Daumas: la grande **Kabylie** étude historique 1847
2. Carette:étude sur la **Kabylie** proprement dite 1848.
3. Deyaux: les **Kbails** du Djurdjura 1859
4. Warnier: l'Algérie devant l'empereur 1865
5. Duval: la politique de **Napoléon** en Algérie 1866
6. Chatelin: en Algérie ,en **Kabylie** et les oasis 1886
7. Charveriat : huit jours en **Kabylie** 1889
8. Hanoteau et letourneux : la **Kabylie** et les coutumes kabyles 1893

هذا بالإضافة إلى الدراسات التي قام بها،"**ماسكوري**"، "**رونيباسي**"و"**غابريال غامبس**" وآخرون فيما بعد.وهي دراسات قامت على الإثنلوجيا والاثنوغرافيا لسكان الجزائر عامة وساكنة **منطقة القبائل** خاصة.

ولقد تأخر غزو هذه المنطقة لعدة أسباب استراتيجية، لعل أهمها هو التضاريس الوعرة، الكثافة السكانية الكبيرة في هذه المناطق و"**الطابع العدائي لساكنة هذه المناطق للغرباء المَقْرُونِ بالكره الديني الذي يكنونه للمسيحيين الذين يجهلون لغتهم، قوانينهم وعاداتهم "(Tocqueville A ,1837 :5)** .

ومنه بدأ التفكير جِدِّيًا باحتلالها ففي هذا الشأن يقول**Liorel**:"**من 1830 لغاية 1857 لم نحتل فعليا منطقة القبائل: وبقي القبائل في استقلالية مقلقة، هذه الاستقلالية هي التي يجب تحطيمها إن كنا نريد الغزو الكلي للجزائر**",**(Liorel (jules)1898(526:**.

ولقد تقاربت الرؤى والتقارير حول سمات ساكنة هذه المنطقة إذ أجمعت أغلب الدراسات على وصف القبائلي بسمات خاصة فيقول "**لادي هربرت**": "**عِوض "العربي" الملفوف في برنوسه والقابع على باب مقهى أو على مدخل خيمته والخامل دائما، وجدنا أنفسنا عند جنس عامل (يقصد القبائل)، صبور، مثابر، يمارس الزراعة، قنوع، يكره حياة البداوة، يحب منزله، متعود على الأعمال الشاقة ويُظهر إتقانا مذهلا للفنون الصناعية،... لا تثبط عزيمته العراقيل التي يواجهها، يحب جباله بشغف، مضياف وحريص على الغرباء، ولكنه لا يقبل بمن يشتمه أو يسيء معاملته... وهو عادة لا يتزوج إلا بامرأة واحدة ويحب أولاده كثيرا، ومكانة المرأة عنده متدنية... وهو شديد الغيرة على زوجته والويل لها إن كلَّمت رجلا أو نظرت إليه ... واستقبال غريب بين أفراد العائلة في البيت يمثل علامة صداقة وثقة يقدمها رب العائلة للضيف... والقبائلي يبدي احتراما كبيرا للقانون وللسلطة وخاصة القانون العرفي**". **(lady Herbert , 1881:178-184)**.

وفي وصف آخر لباحث آخر:" **إذا كان "العربي" رحَّالا، فإن "القبائلي" على العكس، مقيم (مستقر) ويبني مساكنَ ثابتةً تجتمع في قرًى على قمم الجبال كأنها أعشاش النسور وذلك للاحتماء بها ضد الأعداء**".**(Pomel.A ,1871 :51)**

من خلال هذه الدراسات وغيرها، حاول هؤلاء البحاثة أن يتحرَّوا الصدق في تقاريرهم قدر الإمكان وذلك نظرا لما تُمليه الضرورة العسكرية التي تقتضي وصف أدق التفاصيل عن هذا المجتمع "**العدو**" الذي يجب ترويضه لابتلاعه ثقافيا وحضاريا.

ولقد تعمَّقت الدراسات لتشمل الأصول العرقية والصفات الفيزيولوجية للقبائل. وفي هذا الشأن عادة ما يوصف "**القبائلي**" بكون "**لون بشرته فاتحا يميل إلى الأحمر أو الأشقر أو الأصهب، له أطراف قوية وهو في ذلك يشبه الأوروبيين...بينما المقارنة مع "العربي" فلا مجال للشك**"

.**(Pomel.A ,1871 :48)**

بمعنى أنه يوجد شبه كبير بين **القبائل** و**الأوربيين** من حيث الخِلقة بينما مع **العرب** فلا يوجد أي شبه بنظره.

من خلال هذه الدراسات، نلاحظ أن التقارير قد رَكَّزت على الخصائص الثقافية التي تتميز بها منطقة القبائل مقارنة بالمناطق الأخرى، وذلك من حيث اللغة والعادات والتنظيم السياسي والاجتماعي ولعل أهم ما يمكن استخلاصه هو عقدهم الدائم للمقارنة بين "**القبائلي**" المستقر في الأرض « **sédentaire** » و"**العربي**"**البدويالرحَّال** « **nomade** » وذلك دون التفريق عند "**العرب**" بين "**حضرهم**" و"**بدوهم**" وهذا ما يثير بعض التساؤلات حول هذه الدراسات وما يعتبر خطأً منهجيا جسيما .

أما من حيث تعامل الإدارة العسكرية مع "**القبائل**" فكان عبر ما سُمِّي "**بالمكاتبالعربية**"« **bureaux arabes** »ولم يكنيختلف في شيء عن تعاملها مع بقية الشعب الجزائري، إذ مارست معه مختلف أساليب القمع والتقتيل والتجويع و الترويع و سلب الأراضي وإفقار السكان واضطرارهم إلى النزوح من قراهم لطلب لقمة العيش أو الهجرة إلى فرنسا أو النفي إلى مستعمرات فرنسا النائية وخاصة بعد انتفاضة 1871 التي قادها شيخ الطريقة الرحمانية " **المقراني**".

إذن في هذه المرحلة من الاحتلال الفرنسي والتي تميَّزت بمحاولة إرساء دعائم النظام الكولنيالي وبسط سيطرته على كافة مناطق البلاد، نلاحظ أن الدراسات الاثنولوجية والاثنوغرافية قد رَكَّزت على التمايز الذي يطبع المشهد الثقافي الجزائري بين "**عرب**" و "**قبائل**" من حيث الواقع و المعاش السوسيولوجي دون أن يكون ذلك حافزا للإدارة العسكرية آنذاك لانتهاج سياسة خاصة إزاء "**القبائل**"، إذ كانت يد القمع والتقتيل لا تستثني أحدا من " **الأهالي المسلمين**" كما تسميهم أدبيات الإدارة العسكرية آنذاك، رغم تلك المحاولات بإقامة مدارس لاستقطاب أطفال "**القبائل**"، والتي لم تنجح لكونها كانت موجهة لأبناء من كان مواليا للإدارة الفرنسية من "**قياد**" و"**باشاغات**" أماالسواد

الأعظم من الشعب فلم يتحمَّسوا لتدريس أبنائهم في تلك المدارس وذلك نظرا أوَّلا " **لكون العربية ما زالت تفرض نفسها لدى القبائل لِشرف المنزلة التي تحتلها كلغة للوحي، ونظرا لكون التَكلُّم بها يرفع من الاعتبار لدى القوم، وهذا ما يفسر دوام واستمرار وجود المدارس القرآنية شبه السرية في العائلات والقرى المسماة "مرابطية" في منطقة القبائل"** **, ch (Ageron)(884 :2010** ،

ثانيا مَخَافَةَ التعرض للمسخ الهوياتي، و ثالثا لحاجتهم لكل يدٍ عاملةٍ تساهم بقسطها في أداء عملها في البنية الكلية لخلية النحل (العائلة الممتدة).

منطقة القبائل في الفترة الثانية من الغزو(الحكم المدني – التبشيري):

مباشرة عقب الحرب البروسية– الفرنسية 1870 وسقوط النظام الإمبراطوري، تولى المدنيون مقاليد الحكم.وبدأت الانتقادات تتوالى على الإدارة العسكرية السابقة وما اقترفته من أخطاء جسيمة و**قاتلة**" في تسييرها لشؤون المستعمرة وبخاصة في منطقة القبائل، التي انتفضت في وجه الاستعمار عدة مرات وكادت أن تُقَوِّض أركانه سنة **1871**.

وفي هذا الشأن يقول **(Liorel jules)** وهو من عشاق منطقة القبائل **(kabylophile)**:" **إن الخطأ يرجع في المقام الأول إلى الإدارة (يقصد العسكر) التي لم تميز في تعاملها بين "القبائل" و"العرب"**: **(Liorel (j)1898(p526**, ... ويَخْتِم تحامله على العسكر بنصيحة وجَّهَها للإدارة المدنية الجديدة: **"يجب ألا نخلط بين "العربي" و"القبائلي"، ويجب ألا نعاملهم بنفس الطريقة "(536 :, (Liorel (jules)1898** .

ويذهب أبعد من ذلك، ثلاثين عاما بعد انتفاضة **1871**، بالقول أن **"القبائلي ذلك القنوع، النزيه، المثابر، المقتصد، والذي عَبْر كل الأزمنة عرف كيف ينتج فوق هذه الصخور، وسط هذه الأدغال والأشواك، محاصيل انتزعها لطبيعة شِحِّيحة، سيصبح العنصر الأمثل للاستيطان...وسيصبح "القبائل" العنصر الاستيطاني بامتياز، والذيينبغي استغلاله لنجعل من الجزائر فرنسا حقيقية". -530 :1898 , (Liorel (jules)(543.**

ومنهنا نلاحظ أن منظري الإدارة المدنية قد وضعوا إستراتيجية بعيدة المدى لإحكام السيطرة على الجزائر بالتركيز على العنصر "**القبائلي**" الذي يمثل في نظرهم العنصر الأمثل للنهوض بالزراعة والصناعة التي تحتاج إلى اليد العاملة الخبيرة التي يفتقدها المعمِّرون **« les colons**»وحتى المزارع والمصانع في فرنسا الوطن الأم، **"فلقد أوصى رئيس البعثة المالية القبائلية "آيت مهدي" منذ 1899 بهجرة العمَّال المزارعين "القبائل"... فنجد أن المئات من القبائل قد وصلوا إلى فرنسا بين 1906–1907 وذلك لكسر إضراب العمَّال الإيطاليين الذين يشتغلون في معاصر الزيتون ومعامل التكرير في مرسيليا" (Ageron ch ,2010 :856)**، وهذا استنادا إلى عدة دراسات آنثربلوجية أُجريت على سكان منطقة القبائل والتي ترى أن **"القبائلي لا يخشى الذهاب خارج مواطنه طلبا للعمل لسد حاجيات عائلته"(Pomel.A , 1871 :56)**.

وهو بذلك يُقدِّم العنصر الأمثل لاستيطان هذه الأراضي الشاسعة بالمزارعين الأكفاء بدل "**العرب**" الذين لا يتقنون فن الزراعة، وبدل **الآسيويين** أو **المارونيينواللبنانيين** أو **اليهود** الذين تعرضوا للمضايقات في روسيا والذين تمَّ اقتراحهم لاستجلابهم إلى الجزائر لتوفير اليد العاملة ولكن تمَّ الاستغناء عنهم مخافة إثارة القلاقل مع السكان الأصليين.

من هنا بدأت تطفو على السطح ملامح إستراتيجية جديدة ذات وجهين تُجاه " **القبائل**" وذلك لأغراض اقتصادية بحتة، ورغبة في تحقيق إدماجهم في النسيج الحضاري الفرنسي **بالمثاقفة** والتعليم والتعامل التجاري والاقتصادي، الذي مع الوقت سيُخَفِّف من حدة العدائية التي يُكِنُّونها للفرنسيين وللمسيحيين. ولقد شرعت الإدارة الاستعمارية في سَنِّ ترسانة من القوانين لنزع الملكية ومصادرة الأراضي، خاصة بعد انتفاضة 1871، هذا بالإضافة إلى محاولة **تفكيك العائلات الممتدة** بفرض سجل الحالة المدنية على كافة الجزائريين، وذلك نظرا لكون النظام الاجتماعي يرتكز أساسا على العائلة، ثم **لتسهيل نقل الملكية من القبيلة إلى العائلة ثم إلى الفرد** لتسهيل عملية البيع أو المصادرة وذلك بغرض اقتلاع **"القبائلي"** من أرضه وقطع كل الجذور التي تربطه بها.

وفي هذه المرحلة، تمكنت الكنيسة من افتكاك الترخيص بالنشاط الحرّ في الجزائر عامة و في منطقة القبائل خاصة بعد أن كان نشاطها حكرا على بعض الأعمال الخيرية. وهنا نسجل تحالفًا بين الإدارة والكنيسة والإعلام، فيقول الصحفي « **AndréServier** »وهو من الماسونيين: "يجب علينا في كل مرة نستطيع ذلك، أن نقسّم الكتلة الأهلية **bloc indigène**، أن نُفَكِّكَها وأن نَعزِل كلَ عنصرٍ على حِدَى، علينا أن نقوم بالإدماج الفردي بانتزاع أحسن العناصر من الكتلة البربرية (يقصد **القبائل**) ... والمدرسة اللائكية لم تُوفَّق في ذلك، فلنَدَع "**الآباء البيض** "يَتَوَلَّوْنَ ذلك"

.(Ageron ch , 2010 :887)

وبذلك أُطلِقَ العنان للمبشرين للتنظير **لمنطقة القبائل** ومحاولة بناء صورة نمطية عنها لخدمة مشروعهم التنصيري. وفي هذا الشأن يقول القسّ « **Baunard** »في وصف منطقة القبائل: "إنها منطقة رباعية الأضلاع، تمتدُّ على مساحة 900 ألف هكتار في الضِفَّة اليمنى لوادي " **يِسَّر Isser**" قبل "**دَلَّسDellys** " حتى "**بجاية**" على امتداد ساحل البحر المتوسّط، إلى "**سورالغزلان Aumale** " و"**سطيف**" جنوبا....إنَّه عِرْقٌ مُدهش له اسمه، تاريخه ومميزاته. لم يتغير منذ 15 قرنا. عِرْقٌ مختلف تمام الاختلاف عن العرق العربي الإسلامي من حيث اللغة، العادات الحياة المدنية والدينية. هذه الفئة أعرضت عن مقاتلة **العربي** ولكنها لم تنقطع عن **كرهه**، إنه عرق كان سَلَفًا **مسيحيا** جعل منهذه الجبال حصنا لعقيدته والتي يرى فيها "**لافيجري**" مبعثا للكنيسة الإفريقية "

. (Baunard M, 1898 : 399-400).

ومن الجدير بالذكر أن فرنسا المسيحية أرادت بعث أسطورة القبائل المسيحية وإبراز هذه المنطقة ككيان متميِّز عن المناطق العربية بالجزائر. فنجد أن الكاردينال "**لافيجري**" يرى في "ساكنة منطقة القبائل مجتمعا قابلا للتَنَصُّر كون **أصولهمسيحيةً** و يتمسك بعاداتٍ وتقاليدَ مسيحية بارزة كرَّستها الدراسات الآنثربلوجية" **(Baunard M , 1898 :553)** .

ويضيف في موضع آخر قائلا:" يوجد في الجزائر شعبان، بالأحرى عرقان، من جهة هناك **البربر** أو **القبائل** وهم السكَّان الأصليون، ومن جهة أخرى **العرب** وهم الشعب الغازي. فمنذ حلولنا بالجزائر لاحظنا أن **القبائل** يكرهون **العرب** الذين سيطروا عليهم بالقوة. ولقد فرض **العرب** عليهم القرآن وتعاليمه ، وهم في الحقيقة **لاتينيون ومسيحيون** قدامى. وحتى إن لم يكن مستحيلا إيجاد بعض الآثار المسيحية في ثنايا عاداتهم ، فإننا نؤكد أنهم كانوا أبناءًا للذين درَّسهم القديس "**أوغسطين**"

.Renard Edmond,1926:129-130)"(

وهو بذلك يحاول أن يؤسِّس لفكرة الكيان القبائلي المنفصل عن باقي المناطق الجزائرية، لقد كان من أشد المنتقدين للنظام العسكري الذي بنظره لم يُفَرِّق بين "**القبائل** " و"**العرب**" حيث يقول: "وعِوَض ذلك (ويقصد عِوَضَ نشر المسيحية)، فإننا لم نُميز بين "**العرب**" و"**البربر**" (يقصد القبائل)، وضربنا الإثنين معا، وبالتالي وحَّدنا صفوفهم لمواجهة عدوٍّ واحد هو نحن، وهذا ما تمثل جليا في ثورة الإخوان الرحمانيين سنة 1871 " وهو يقصد ثورة المقراني **(Lavigerie ch ,1884 :404)**.

ولقد حاول هؤلاء المبشرون أن يُروِّجوا لمجموعة من الأوصاف الخاصة **بالقبائل** وذلك محاولة منهم تعميق الهوة بينهم وبين إخوانهم في الوطن "**العرب**" بوصفهم غزاة ومعتدين ومحاولة تقريبهم من الجنس الأوروبي المتحضر انطلاقا من المركزية الإثنية الغربية. فلقد وصفوا **القبائل** بالتسامح الديني، وحب العمل، والتفتُّح الفكري، وهم بذلك أقرب إلى الفرنسيين وفي ذلك يقول الجنرال » « **Daumas**: "كلما حفرنا هذا الجذع القديم، وجدنا تحت القشرة الإسلامية الأصول المسيحية. وعند ذلك ندرك أن **القبائلي** القديم كان مسيحيًا ولم يتحوَّل كُلِّيةً إلى دينه الجديد" بمعنى الدين الإسلامي.

.G, 1925 :268)(Goyau

ولقد حاولوا توظيف التاريخلاستنهاض الروح المسيحية لدى "**القبائل**" باعتبارهم كانوا مسيحيين قبل مجيء "**العرب**". ولقد تكثَّفت الإرساليات التبشيرية إلى هذه المنطقة لإعادتها إلى الحظيرة المسيحية. فنجد مثلا الدكتور « **Warnier** » من الذين "نادوا بتنصير "**القبائل**" ومن المشجعين لخلق كيان قبائلي مستقل، بحيث اعتبر البربر (**القبائل**) هم السكان الأصليون للبلاد، ورغم كونهم تقبَّلوا الدين الإسلامي، إلا أنهم يبدون استعدادا كبيرا للرجوع إلى المسيحية " . **(Ageron ch , 1968 :270)** .

كما حاولوا في كل كتاباتهم التركيز على العامل العرقي، بالتأكيد على تمايز الجنسين "**العربي**" و«**البربري**". لكنهم اختلفوا فيما يخص أصل الجنس البربري، فنجد مثلا« **George Elie** » و هو إداري سابق يرى أن "**البربر**" ينحدرون من الشعوب الشمالية « **Nordiques** » لكون الكثير منهم شقر وعيونهم زرقاء. وهم لا يختلفون بذلك عن القرويين الفرنسيين من حيث حب العمل والدقَّة فيه وحب الأرض واكتسابهم لمفهوم الاقتصاد والصراحة والذكاء. ويذهب أبعد من ذلك حين يقول :" خذوا أية جماعة بربرية (وهو يقصد **القبائل**) وانزعوا من أعضائها البرانس وألبسوهم اللباس الأوروبية فإنكم ستجدون أمامكم مجلسا بلديا يتكوَّن من فرنسيين ". **(Elie G , 1923 :22)**.

في حين أن الكاردينال " **لافيجري**"صرّح أن "**القبائل**" والفرنسيين ينحدرون من سلالة واحدة و هي سلالة الرومان "**(وعلي م،1997 :58)**. وهنا نلاحظ تضاربا في دراساتهم و رؤاهم حول أصل "**القبائل**" .

أما أستاذ الحقوق بجامعة الجزائر « **Charveriat** »فيرى أن القبائل خليط من أجناس اندثرت تحت وابل الأحداث. هذه الأجناس امتزجت لتشكِّل مزيجا في غاية التماسك مثل صخور الغرانيت "**(Charveriat F ,1889 :130)** ، وهذا الخليط في نظره متكوّن منإنجليز وباسك ونورمانديين (نرويج) ومصريين. وفي نفس السياق يقول "**ماسكوري**": "ولكن وجوههم (وهو يقصد **القبائل**) مختلفة إلى درجة يصعب التكهُّن بمن كانوا آباءهم، فالجرماني يصطدم بالروماني والكنعاني بالهندي العربي" "**jules,1898 : 2) (Liorel**.إنطلاقا من هذه التوصيفات نستنتج أن "**القبائل**" في نظر هؤلاء الفرنسي، جنس هجين و ليس جنسا صافيا هنا نلمس هذا التناقض الصارخ مع دراسات سابقة ترى أن " **القبائل**" هم أكثر القبائل البربرية التي حافظت على نقائها العرقي نظرا لكونها لم تتعرض لأي غزو عسكري مباشر منذ الرومان حتى الفتح العربي " إذ بالرغم من كونهم مسلمين إلا أنهم بقوا أحرا ، حافظوا على بناهم الفكري، الاجتماعية السياسية بخاصة على لغتهم الأصلية التي تمثل علامة لتميُّزهم استقلاليتهم.

الاستنتاجات و الخلاصات:

1- إن أولى الملاحظات التي يمكن استخلاصها هي إن تعامل فرنسا مع منطقة القبائل قد تَدَرَّج عبر ثلاث مراحل، مرحلة الاستكشاف (مرحلة ما قبل العزو)، مرحلة الاكتشاف (مرحلة الحكم العسكري) ثم مرحلة تسخير البحوث العلمية لتحقيق الإستراتيجية الكولونيالية (مرحلة الحكم المدني).

2- لميكتفالاستعمارالفرنسيبالغزوالعسكريلتكريستواجدهوفرضهيمنته علىالجزائر،بلوظفاستراتيجياتشتى ومنها استراتيجية توظيف الصراع الدائم بين مختلف القبائل المكونة لمنطقة القبائل وذلك لتفتيتها وتفكيك بنيتها الاجتماعية التي تعتبر " أكثر المؤسسات البشرية صلابة ") **Tocquecville,1837 :11)**

3- داخل بنية القبيلة أو العرش حاول الاستعمار أن يوظِّف الصراع الدائم بين "**الصف العلوي**" و"**الصف السفلي**" الذين يُكوِّنان البنية التقليدية لجميع قرى منطقة القبائل وكثيرا ما تمَّ الاستثمار في استقطاب قادة القبائل الموالين لفرنسا لاستغلال وضعهم للتأثير على القبائل التي لم تخضع بعد للاحتلال الفرنسي.

4- داخل القرى القبائلية حاول الاستعمار أن يوظّف كذلك التركيبة البشرية المتكونة غالبا من طائفة "المرابطين" وباقي ساكنة منطقة القبائل وذلك بتوظيف فئة "المرابطين" إذ أن " غالبية القيادات التي تم تعيينها في الفترة الممتدة ما بين 1840و1895 كانوا من فئة "**المرابطية**"، ربما الاستثناءات الوحيدة كانت تفرض نفسها بقوة السلاح، وهذا ما دفع جنرالات الجيش إلى توخي الحذر من اندلا ع الانتفاضات والمرونة في التعامل مع الأوضاع ... وغالبا ما ينتظرون الموت الطبيعي لقيادات العائلات الكبيرة "اللائكية" ليتم استبدالها بشخصيات "**مرابطية**"" **(Ageron (ch), 1980 :39)**. وفي هذه النقطة بالتحديد لاحظنا أنَّ وصف القبائل "**باللائكيين**" ناتج عن هذا التقسيم المنهجي بين فئة "المرابطية" وباقي العائلات القبائلية غير "المرابطية" دون أن يكون لهذه التسمية أية علاقة بمفهوم اللائكية المتداول في الحضارة الغربية.

5- نشاء ما سُمِّي "**بالمكاتب العربية**" والتي انتهج ضباطها سياسة "القبائل والعروش" وذلك بالاعتماد على طائفة "المرابطية" التي تعرف المنطقة حق المعرفة ووضعهم في وجه العائلات القبائلية الكبرى غير "المرابطية" والتي وُصفت باللائكية. ونظرا لكون هذه الطائفة تتقن العربية قراءة وكتابة، فهذا ما يُفسِّر لماذا تمَّ تعريب معظم أسماء العائلات والقرى والأماكن والوديان والجبال والبنى الاجتماعية وحتى أسماء

القيم التي تفتخر بها هذه المنطقة. (آث أصبح بني، أذرار أصبح جبل، إغزر أو ثاسيفث أصبح وادي، قيم النيف والحرمة إلخ) وهذا ما عزّز السلطة المعنوية لهذه الفئة بامتلاكها وتدوينها لتاريخ المنطقة والعائلات "وسمح لها باستعادة وجودها السياسي الذي فقدته" **(Tocqueville, 1837 :6)**. و"لقد ساهمت المكاتب العربية بقوة في المهمة الكارثية، المتمثلة في السلخ الهوياتي (débérbérisation) للقرى القبائلية ..... لقد كان على رأسها ضباط فرنسيون حافظوا على تحكُّمهم المحكم بواسطة التأسيس لنظام السطو الممَنهج وإثارة الانتفاضات المدبَّرة وذلك لتبرير مصادرة الأراضي والقتل والجباية لدى القبائل المنتفضة" **(Violard e,1926 :10)**وبالمقابل نجدأن" التعريب قد خطى في هذه المنطقة (منطقة القبائل) خطوات جبارة وذلك بإقحام نظام إدارة **بالعربية à administration »** **l'arabe »(Liorel jules,1898 :223)** **إذ** " كان ضباط(هذه المكاتب) يعتبرون أنه يتعيَّن التحدُّث بالعربية دون تمييز في كامل شمال إفريقيا، حتى أن بعض العقول التي تشربت بالمقاربة الاستشراقية القديمة،يتحدثون عن التعريب كمرحلة أوَّلية لحملة التمدين والتحضير المتبناة حيال الشعوب البدائية ... ولا يجب تعليم الفرنسية لهذه الجماعات البربرية (القبائل) إلا بعد مرحلة تعريبهم" **(le glay ,1921 :11)** .

6- لقد تم التأسيس لسياسة (السياسة القبائلية) تقوم على الاحتفاظ بالأشكال الجمهورية للقبيلة، وذلك بتفويض السلطة لأمناء القبائل والاستغلال المحكم لِمُعْطَى " الصَّف" في كل قبيلة علما أن في كل قرية نجد صَفَّين "صف علوي " و"صف سفلي"، وكذا استغلال نفوذ العائلات الكبيرة، واحترام القوانين العرفية القديمة للمنطقة والتي باعتقاد الفرنسيين، أنها لا تتعارض في أي حال من الأحوال مع روح قانونهم العام. ففي أمرية 3 ديسمبر 1859 أمر الماريشال " راندون" بالحفاظ على القوانين العرفية القبائلية مع تنقيتها من بعض البنود البربرية في إشارة إلى أحكام الشريعة، و لكن بالمقابل هنالك من كان يرى أحكام الشريعة الإسلامية أكثر إنسانية من هذه القوانين العرفية منهم "مدير الشؤون الأهلية « **Luciani**»وهو من المستعربين الذي يعترف سنة 1916 أنه لا يُكِنُّ لعادات القبائل المليئة بالخرافات والبربرية سوى الاحتقار وأنه مقارنة بهذه العادات، فإن الإسلام يمثل مرحلة أرقى من التحضر" **(Ageron,1980 :879)**

7- لقد قامت الإدارة الاستعمارية بتقسيم المنطقة إداريا وذلك لتسهل عملية التحكم في الأهالي ولتفتيت منطقة القبائل وزرع الفرقة بين هذه الكيانات الإدارية وفي هذا يقول حسين آيت أحمد: "نعلم يقينا أن تسمية "القبائل الصغرى" و"القبائل الكبرى" ما هي إلا تسميات جزافية وضعتها الإدارة الاستعمارية سعيا منها لتقسيم سكان واجهتي جبال جرجرة " الشمالية والجنوبية"، هذا التقسيم قد ألحق منطقة الصومام بمقاطعة قسنطينة"**(Ait Ahmed h,1983 :71)**" وذلك ما يؤكده « **Morizot** » في قوله: إن جبال جرجرة تشق منطقة القبائل المتجانسة اجتماعيا ولغويا وتقسمها إلى منطقتين في غالبية الأحيان متعاديتين، الأولى تصد واجهتها للجزائر والثانية لقسنطينة. ونحن من سمَّينا الأولى "القبائل الكبرى" والثانية" القبائل الصغرى"، ونظرا لكون هذه البلاد معروفة بجبالها المتشابكة اضطررنا للتمييز في " القبائل الكبرى" بين "القبائل العليا" و"القبائل السفلى" وفي "القبائل الصغرى" بين قطاع " الصومام" وقطاع "ڤرڤور" **(morizotj 1962 :34-35),** ولقد زرعت الفتنة بين المنطقتين بغرس فكرة أن القبائل الصغرى أكثر تدينا وتعربا .

8- لقد أوغل البحَّاثة والكتَّاب، في الوصف الأسطوري لهذه المنطقة بمحاولة التأسيس لعلاقة تضاد بين الجنس القبائلي المقيم في الجبال، وبين الجنس العربي المنتشر عبر السهول والهضاب. وادعوا أنهم قد وجدوا أو اكتشفوا في الشعب القبائلي الذي يعتبرونه من أصل جرماني، آثار تَشَرُّبِ هذا المجتمع بالقيم المسيحية، كحب العمل وتقديسه، وتقدير المرأة، والشغف بالمساواة والأخوة والتضامن الآلي الخ.....وهذا الشغف بالمساواة يمنعهم من القبول بفكرة الزعيم أو القائد المطلق، وهذا ما استغلَّته الإدارة الاستعمارية بدهاء وحنكة. ونظرا لكون إدارة القرى القبائلية ديمقراطية، فالحكمة تقتضي المحافظة على نفس نمط الإدارة وذلك لتجنُّب إثارة القلاقل والثورات ضد الإدارة الاستعمارية وثانيا لكون هذا النمط أثبت نجاعته في الحفاظ على الأمن والسلم الاجتماعيين في هذه المناطق ربما أكثر مما توفِّره القوانين الوضعية الفرنسية ذاتها. إذن فالنظام القبائلي يستجيب لسياسة واقعية براغماتية وليس لسياسة عاطفية قبائلية »« **politique Kabylophile**، ولقد سمحت بتفتيت البنى القبلية والقضاء على القيادات الروحية لكل قبيلة.

9- إنه من المسلَّمات أن مباشرة أية عملية استعمارية تقتضي وضع سياسة ممنهجة تخص الشعب الذي يراد استعماره.السؤال الذي ينبغي أن يُطرح، هل يمكن القول أن منطقة القبائل قد تواطأت مع الاحتلال الفرنسي أم أنها بالعكس كانت شوكة في وجه مخططاته؟هل

عرفت هذه المنطقة نوعا من الامتيازات على الصعيد الاجتماعي، الاقتصادي، الثقافي واللغوي من طرف هذه الادارة الاستعمارية التي يفُترض أنها تمارس هذه السياسة القبائلية أم العكس؟هل كانت هذه المنطقة بمنىً عن آلة التقتيل والإبادة الجماعية للعائلات وتدمير القرى والمداشر وحرق المحاصيل والغابات ومصادرتها؟بالعكس لقد عرفت المنطقة مصادرة الأراضي التي أدَّت إلى انتشار المجاعات وهلاك الآلاف. وتعرضت للمضايقات الجبائية الممنهجة والتعسفية من قبل المكاتب العربية وذلك لدفع ساكنتها للانتفاض لتبرير عمليات القمع والتقتيل أو النفي ثم مصادرة أراضي القبائل المنتفضة.وساهمت في تكريس التضاد بين الثنائيتين [عربية–إسلام] و[فرنسية– مسيحية] وأهملت كلية الأمازيغية ومكوناتها رغم الدراسات التي أقيمت هنا وهناك .

المراجع بالعربية :

1- وعلي م، 1997، التعليم التبشيري في الجزائر[1830–1904]، دراسة تاريخية تحليلية، منشورات دحلب، الجزائر

المراجع الأجنبية :

1- A Berbrugger,voyage au camp d'abdelkader,bibliotheque royale, Paris,1839
2- A pomel, des races indigenes de l'Algerie, arabes kabyles maures et juifs, Oran, typographie et lithographie veuve dagorn, Rue trobriand 28,1871
3- Ageron Ch R, les Algeriens musulmans et la France (1871-1904),T1,PUF,1968
4- Baunard(M), le cardinal lavigerie,T1, librairie poussielgues, Paris, 1898
5- Charveriat (francois) :1889-huit jours en kabylie.a travers la kabylie et les questions kabyles,paris,librairie plon.
6- Ch-r .ageron : 1980- « l'Algérie algérienne »de napoleon lll à de gaulle ,sindbad, ,
7- Elie G , la Kabylie du Djurdjura et les peres blancs, ED Louis de Soye, Paris, 1923
8- Goyau G , un grand missionnaire : le cardinal lavigerie , librairie plan, Paris,1925
9- h.ait ahmed, memoires d'un combattant ,l'esprit d'independance 1942-1952, sylvie messinger editeur, paris, 1983,
10- Herbert lady, Algérie contemporaine illustrée,Victor calmé,rue des saints peres,76 Paris,1881
11- Lavigerie (CH) , œuvres choisies, T2, librairie poussielgues, Paris, 1884
12- Le glay,l'école française et la question berbere , direction générale de l'instruction publique , des beaux arts et des antiquités , rabat, 1921
13- Liorel (jules) : Kabylie du Djurdjura,paris, Ernest Leroux éditeur, 1898
14- morizot(j) : l'Algérie kabylisée, cahiers de l'afrique et l'asie, editions j.peyronnet et cie, paris. 1962
15- Renard(edmond),le cardinal lavigerie, Ed spes, Paris,1926
16- Tocqueville A,lettre sur l'Algerie, http://bibliotheque.uqac.uquebec.ca/index.htm
17- Tournier(CH), « le cardinal lavigerie , documents innedits sur le conflit entre le cardinal et Mac mahon », R.H.M,2eme année,N°1,Mars,1925
18- Violard (e), les villages algeriens,1870-1890, 2 tome, imprimerie administrative victor heintz, alger, 1926